

اصلي الطريقة الصوفية

للدكتور مصطفى كمال وصفي
المستشار المساعد بمجلس الدولة

ليس ذلك طعنا في الجهاز القائم .
فإن هذا الجهاز قد ورث عيوب الأجيال
السابقة ، ويكفي القائمين الآن نفرا
إذا هم بادروا إلى إصلاح هذه العيوب
ولم يصفية هذه التركيبة الثقيلة التي
يرزحون تحت أثقالها لتخلص لهم
فوائد الطرق ومنافعها للصالح العام
المسرجو .

ويكفي القائمين الآن نفرا أنهم
يسمحون بالاعتراف بأننا لسنا أبرياء
من العيوب ، وأنهم لم يقعدوا مع
النائمين وعجائز الفرج ، بل بادروا
بتشكيل لجنة شاملة فيها أعضاء المجلس
الصوفي الأعلى ومندوبون عن المصالح
والوزارات ذات الشأن وعضو من
مجلس الدولة لكي يضعوا أساس
الإصلاح وتعود الطرق مرة أخرى
إلى الطريق السليم المستقيم .

ولاشك في أن أول عمل لمثل هذه
اللجنة هو أن تضع النقاط على الحروف
وأن تبلور الداء وتشخصه لكي تبدأ

تسكلمنا في المقال السابق عن أهمية
الصوفية ، وبيننا أنها بمثابة الجامعة
الشعبية التي تتولى الإرشاد الروحي
للشعب المصري . وبيننا قيمة الحياة
الروحية بالنسبة للروح المعنوية للأمم
عامة ، وبالنسبة للمصريين خاصة .

وتسكلم هذه المرة عن حقيقة هذه
الجامعة الشعبية ، وهل استطاعت أن
تقوم بواجبها ، وما هي العيوب التي
برزت فيها ومنعتها من أداء هذه
الرسالة . وذلك تمهيدا للجزء الأخير
من المقال الذي سنعرضه في المرة
القادمة ، وهو خطة الإصلاح .

١ - عيوب الطرق الصوفية في الإقليم الجنوبي

إذا كانت الطرق الصوفية جامعة
شعبية يمكن أن تصير إدارة نافعة ، بل
الإدارة الأولى في الإرشاد القوي
الصحيح . فإن الواقع هو أنها لا تستطيع
أن تقوم بهذا الدور الآن وبالصورة
التي هي عليه .

في علاج ، وليس من العار أن تكون
في بعض المعايير ، فأى الناس تصفو
مشاربه ؟ ولكن العار هو أن تأخذنى
العزة بالإثم وأن اتكبر وازعم أنني
لاعيب في مع أن عيبي ظاهر يراه
السكاكة ، وربما كان الشعور بالنقص
هو أول درجات السكالك ، والإشارة
بالعيب هو أول خطوات الانجاء إلى
الإصلاح .

ولذلك فتشخيص الداء ضرورى
للالصلاح .

لقد سبق أن بينا أن هذه الجامعة
الشعبية لا بد من أن تتكون من خليط
يضم الصالح والطالح . واننا لانستطيع
أن نظرد الطالح عن أبوابنا ، فهذا
تسخر لصاحب الحق الأول في الإرشاد
والطرق الصوفية باب الله وباب التوبة
إليه ، ولن نستطيع أن نغلق باب الله
في وجه التائبين .

ولذلك فليس عيبا في الطرق الصوفية
أنها تضم بعض الذين لهم ماض ، بل يجب
أن تضم أمثال هؤلاء ليمهد لهم سبيل
العودة للحياة الصالحة ، ولا يمكن أن
يعبر ابن الطريقة بأن له ماض ، أو أنه
يصدر منه ما لا يليق .. لأن مجرد انتسابه
للطريقة أعتراف منه بالحاجة إلى
الإرشاد واستعداداً منه للتلقى .

ليس ذلك عيبا ، وانما العيب هو أن
لا يكون أساندة هذه الجامعة من
المستوى اللازم لهذا الارشاد

يقول شيخنا الإمام الرفاعي
« ما أقبح العلة بالأطباء ، والجهل
بالإلياء ، من لم يدرك في نفسه النقصان
فكل أيامه نقصان »

فلا عيب إذا كان المرید جاهلا سي .
الخلق ، ولكن إذا كان المرشد كذلك
فان الوضع يكون خطيرا ، وهنا يحتم
العيب ومنه يبدأ العلاج

ولعله من المفيد أن نقرر أن المبادئ
الصوفية الصحيحة ، والآثار الموروثة
عن السلف الصالح كان من شأنها أن
تنجى الطرق الصوفية مما تهاوت إليه ،
وأن تحفظها بما هي فيه الآن ، لولا أننا
نبذناها وراء ظهورنا وكأننا لا نعلمها
واتبعنا من دونها ما أحاق بنا الضرر
لأنه يحقق مصالح مادية تافهة زائلة
لللبعض ، واشتروا بآيات الله ثمنا
قليلًا ،

فالأصول الصوفية الحقيقية تقتضى
أن يكون للطريقة شيخا واحدا فقط
والباقي كلهم مريدون ، ويقوم الشيخ
بتربية هؤلاء المنفر حتى يجد فيهم من

يصح أن يخلفه ، فيضمر ذلك في نفسه حتى يستشعر قرب الأجل فيشاور مريديه في أمر خلافة هذا المختار ، وربما حاجهم وأجرى أمامهم اختياراً لمرشحه يبين لهم صدق نظره فيه ورجحان كفته عن يتوقون اتفضييه ، فإذا انتقل الشيخ إلى جوار ربه قام الخليفة الجديد بدوره ، ويشترط لذلك أن تقوم أبناء الطريقة ببيعته والرضا بامامته وقد مهد الشيخ الأول لذلك بهيئته هذا الخليفة لدوره الكبير والعناية به في التربية والتقريب ، وإثبات أهليته للمتتبعين للطريقة

ومن شأن هذا النظام ألا يرشح لشيخة الطرق إلا من هو أهل لها

فأين هذا من نظام الوراثة الذي نراه الآن معمولاً به ؟

لا شك أن الوراثة — وإن أصابت في كثير من الأحيان — إلا أنها في النهاية لا بد أن تنتهي بالنظام إلى التدهور ، أقول لا بد وحتمًا كما هو الحال في السلالات الملكية الوراثية مثلاً ، إذ يتعود الخلف الاعتماد على الملك والظروف المهيمنة ، ويركنون إلى الترف ويظنون في نفوسهم علواً على الناس ، ولكم أن تقارنوا في أية سلالة وراثية بين المنشيء

والمنتهى ، بين الأول والآخر ، ولا دليل أسطع من هذا وأقوى

وقد كنت أقول دائماً أن الله عز وعلا أراد أن ينجي آل البيت من هذا ومن أن ينقلبوا من أسرة نبوية إلى سلالة ملكية ، وذلك رحمة منه لهم وبركة عليهم ، فلم ينصر الحسن والحسين في الخلافة وانجأهم من شرورها . وحبطت الكثير من الثورات والفتن التي قام بها العلويون على طول التاريخ وما كان نصرهم على الله بعزير ولكنهم لم يشأ . ولما أسست الدولة الفاطمية باسم بيت النبوة انتهى الأمر فيها بظهور خليفة مثله وآخر يجنون وثالث مبتذل فاسد حتى انهار ملكهم شأنه في ذلك شأن أي نظام وراثي .

فإذا كان الملاحظ الآن أن الكثيرين من المشايخ الوراثيين على درجة من الصلاح ، فأننا لا نضمن أن يستمر الحال كذلك ، وأننا كنا نطمح من أكثرهم أن يكون أكثر من ذلك قوة وعنفوا في الطريق . ثم إن أغلب من نراهم منهم لا يرق حالهم عن أن يكونوا ، لا مطعن عليهم ، أي لا تدين فيهم عيباً ولا حسنة . بينا المطلوب لهذا المقام عمة عالية مشحونة وقلب كبير وجهد جبار متصل وعزيمة قوية

ولإيمان راسخ شديد ، حتى يكونوا
كالمصدر الذي يشع النور إلى القلوب
وتستضيء به سائر المهتم والعزائم ،
ويكونوا مدداً حقيقياً للطريقة
ورجالها .

ولا شك في أن من شأن سلبية
القائمين على الطرق ، أن نعم السلبية
جهاز الطريقة نفسها فيتعطل ويقف
دولاب عملها . بينما المطلوب هو
الإيجابية والانبعث والقوة . فينشأ
عن ذلك الحركة والنشاط والتقدم .

ولو اقتصر الأمر على سلبية المشايخ
واختيارهم بالوراثة لكان الأمر ، فقد
بيننا أن هؤلاء لا يضرون النظام في
شيء . وغاية ما ينتج الآن عن هذا الوضع
هو العقم والجرد والتوقف . أى
المحافظة على الأوضاع السابقة بدون
تدهور وظهور مفاسد

ولكن المفاسد الحقيقية والعبث
ظهر من طائفة الخلفاء ونحوهم ممن
يلون الشيخ في الأهمية ، فهؤلاء هم نذر
التدمير والهدم في كيان الجسد الصوفي
وهم الذين أعنى بالتقويم والعلاج

أنا لا يهمني أن يكون شيخ الطريقة
وراثياً . ففي أصله الكريم العريق
ما يضمن في كثير من الأحيان كرم
خلقه وغيرته على سمعته . ويمكن أن

يظل رمزاً للطريقة وشعاراً لها ولو كان
هذا الشعار سلبياً . بل أن الشعار
دائماً لا يكون إلا سلبياً .

ولكن المهم كل الأهمية هو كيفية
اختيار الخليفة وطريقته ضمنه إلى
الأسرة الصوفية فقد سبق أن بينا أنه
في أوقات نهضة الصوفية لم يكن للشيخ
خلفاء حال حياته . بل كانت الطريقة
كلها مرابين ومنتسبين ولا يكن لها
إلا شيخ واحد . ولذلك أستطاع
الشيخ أن يوجهوا مجتمعهم نحو الخير .
وفي عهد النبي صلى الله عليه وسلم ، لم
يقم إلى جانبه خلفاء صوفيون . بل
كان اختيارهم بعد أتمقاله . وظل كل
خليفة صوفي من هؤلاء الخلفاء يتلقى
القبضة كإبراً عن كإبراً فلا يشاركه
حال حياته خلفاء آخرين في
طريقته .

واستمر الحال كذلك إلى أن تطور
النظام إلى ما نحن فيه من بدعة فاسدة :
أن يكون شيخ الطريقة ثان ، وإلى
جانبه وفي نفس المدينة بل والحي الذي
يقيم فيه ، آلاف مؤلفة من الخلفاء .
كل منهم يعطى العهود ويقسم البركات
على من يريد . ويحصل في مقابل ذلك
على ما يستطيع الحصول عليه .

هذه بدعة . وكل بدعة ضلالة . وكل
ضلالة في النار . البحث مستمر

(البقية من ص ٢٤)

الذى خلقك ، أن تعتمد عليه في
أمرك كله .

ثم بعد ذلك تنطلق في هذه الحياة
تعمل فيها لأن الله وضع لها قانون
لا يتبدل ولا يتغير ، هو الأسباب
والمسببات .

وأنت بانطلاقك مع العالمين ،
تدرك أن الأسباب من صنع رب
العالمين ، وأنه أمرك بالأخذ بها ،
وذلك هو الطريق المستقيم .

وإلى ذلك يشير قوله سبحانه
«توكل على الحى الذى لا يموت» .
وبقليل من التفكير فيها تدرك من
عجائنها وغرائبها الشيء الكثير .

توكل على الله الحى الذى
لا يموت .

هذا هو الاتجاه الصحيح ، لأن
الله حى أبدا لا يموت أبدا ، فأنت
بتوكلك عليه إنما تعتمد على شيء
حى يستطيع أن يمدك بالحياة
الحقيقية المتجددة .

أما إذا توكلت على شيء غيره ،
فأنت تعتمد على فان هالك ميت ،
لا تستطيع أن يمدح لشيء ؛ لأنه
هو ميت لا حياة فيه أصلا .

يا لها من أسرار كبرى وعظام
عظمتى ، توكل على الحى الذى
لا يموت .

لا ينبغي أن تتوكل إلا على مصدر
الحياة ومعطى الحياة ، وذلك
لا يكون إلا الله .

الله الذى هو الحى وحده لأنه
لا يموت .

أما الانسان أما الملائكة أما أى
شيء دونه فلا يسمى حيا إلا بتجوزا
لأنه يوما ما يموت ، ومن الجهالة
الاعتماد على من لا بقاء له .

أرأيت من أسرارها وأنوارها .
قلبك أربطه بالله الذى لا يموت ،
ومتى وصلت قلبك بالحى ؛ بواهب
الحياة لسكل حى ، أعطاك الحياة ،
الحياة الحقيقية بجماها وجلالها .

إنك إذا حى بمعنى كلمة حى .
وعلامة الحى هو العمل ، الابداع ،
الاتجاج .

إن الله حى فهو يخلق ويصنع
ويبدع ويعطى ويمنع .

كذلك علامة الإنسان الحى ، هو
الابداع والصناعة ، والاعطاء
والمنع ، والرضا والغضب .

مخلوق يشع الحيوية ويشرق
بالنور .

ذلك هو المتوكل .

أما النبط والنمط باسم التوكل فذلك
أمر ليس من سنة النبيين والمرسلين
ولامن هدى الهداة والمهديين

آية ذلك قوله سبحانه وبأيم الرسل
كلوا من الطيبات واعملوا صالحا .

أمر الرسل بالعمل وهم في أعلى
مقامات التوكل .

وقوله صلى الله عليه وسلم

« رهبانية أمتي الجهاد » .

اعتبر صلى الله عليه وسلم الجهاد
هو الرهبانية الصحيحة .

ذلك أن المجاهد في الله ، رجل
إيجابي لاسلبي .

المجاهد تجرد من الدنيا وخرج

لنبوت إعلاء للحق وإرضاء لله .

أما الراهب فتجرد من الدنيا

وخرج ليعيش ويواصل الحياة في

زوايا النسيان .

فالمجاهد أرقى وأرقى .

وشتان بين من يتقدم للموت ومن يهجن

عن الموت ويحرص على الحياة .

وذلك هو التوجيه الإسلامي

الصحيح ، وتلك هي دعوة محمد صلى

الله عليه وسلم النقية الخالصة كما

أنزلها رب العالمين .

فالتوكل هو أن تصل قلبك بالله

صلة تعطيك طاقة ربانية دافعة

دافعة تجعلك مخلوقا ربانيا تنطلق

مجاهدا عاملا لا تعرف سكونا ولا

هدوءا حتى تعود إلى الله إما سعيدا

وإما شهيدا ؟ محمود شلبي

رسائل القراء

توالت على سكرتارية التحرير رسائل السادة القراء مطالبين بعودة

بإهم الحبيب - رسائل القراء - إلى صفحات المجلة ليكون معرضا لأفكار

القراء وآرائهم وأفكارهم .

ونزولا على تلك الرغبة الكريمة . نعيد ابتداء من الغد القادم إن شاء الله

باب الرسائل .